أصول الإصلاح الاجتماعى

للأستاذ محمد الخضر حسين

عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

يعمل المصلحون على أن تكون شئون أممهم الاجتماعية فى نظام وصفاء ، ولا تستقيم هذه الشئون ، وتخلص من كل كدر ، إلا حيث تكون الأمة قد استوفت وسائل القوة والمنعة ، وهى الارتواء من مناهل العرفان ، والرسوخ فى مكارم الأخلاق ، والاعتصام بحبل الائتلاف والاتحاد ، وتوفر الأيدى على العمل لكسب الأرزاق . وهذه الوسائل الأربع إنما تعود على النفس بطمأنينة ، وتذيقها طعم حياة لذيذة متى سبقها إيمان يضرب بأشعته فى كل سبيل .

فتفاضل الأمم فى مراقى العزة والقوة ، يجرى على قدر تفاوتها فى الإيمان والعلم وكرم السجايا ، ومتانة الاتحاد ، والسعى لاكتساب الطيب من الرزق .

أما الإيمان فهو النور الذى يسعى بين أيدى الجماعة يرد بها كل ورد عذب ، ويرتاد بها كل مرعى خصب ، وهو الوسيلة التى يتقون بها رضا الخالق جل شأنه ، وإذا ظفروا برضا الخالق ، وفقهم إلى كل عمل مجيد ، وجعلهم إذ يجاورون غير المؤمنين هم السابقين ، وإذ يناضلون غير المؤمنين هم الفائزين .

وقد دل التاريخ الصادق والمشاهدات المتواصلة على أن المتمسين إلى دين حق ، لا يدركهم خمول ، ولا تعلو عليهم يد ممن سواهم إلا حيث يتضاءل الإيمان فى قلوبهم تضاؤلا ينسيهم جلال علام الغيوب ، ولا يبقى لحكمته البالغة عليهم من سبيل .

والسياسة الرشيدة تعلم يقينا أن للإيمان الصحيح فضلا فى تقوية صلات الألفة والاتحاد وفضلا فى تهذيب النفوس وانتظام الأمن فى البلاد ، فتوجه عنايتها إلى تربية النشء على تعظيم أمر الله تعظيما يتجه بهم الى أفضل السير ، وأحمدها عاقبة ، وفى الحق أن من يضع فى نفس الناشئ إيمانا مسندا إلى حجة ، إنما يبنى فيها أساسا للسيرة القويمة ، والعواطف الكريمة .

وأما العلم فنريد منه المعارف التى طلعت من أفق النبوة الصادقة ، واستنبطتها العقول الثاقبة أو ثمرتها التجارب الصحيحة ، وفضل هذه العلوم فى استبانة طرق الفلاح ، واستكشاف ما فى هذا العالم من أسرار ، وتوفير أسباب الراحة فى هذه الحياة واضح بحيث يشهد به كل ذى بصيرة ، أو أذن واعية ، والذى أرى التنبيه له فى هذا المقام هو أن الشرف أنما جاء إلى العلم من ناحية العمل به ، فلو بلغ شخص الدرجة القصوى فى علم من العلوم ، ولم يكن لهذا

العلم فى حياته العلمية من أثر، لكان هو والجاهل به سواء . فلا فضل للعالم بالشريعة إلا أن يقف بجانب حماتها ، ويأخذ نفسه بآدابها ، ولا فضل للعالم بالهندسة إلا أن يكون له قسط فى تثبيت قواعد العمران والحضارة ، ولا فضل لدارس الطبيعة إلا أن يضع يده فيما يجلب للانسانية راحة أو يزيح عنها نصبا ، ولا يحق لدارس علم أن يعد نفسه فى قبيل أهل ذلك العلم ، إلا أن يستطيع تحقيقه فى صور عملية ، كما يفعل علماؤه الراسخون ، والطالب الذى يقبل على العلم بداعية قوية من نفسه هو الذى يسير فيه إلى أقصى غاية ولا يرضى إلا أن يتجه به إلى الناحية الحيوية التى وضع ودون لإصلاحها .

وليس من شك فى أن المعلم الذى يدرس علما برغبة من نفسه ، هو الذى يصلح لأن يناط به العمل الذى يتصل بذلك العلم ، وهو الذى يرجى لأن ينهض به فى غير سآمة ، ويسعده عزمه على أن يقوم به أفضل قيام .

وأما أثر الأخلاق فى رقى الاجتماع ، فإن كل خلق يسد ثغرة فى بناء المجتمع لا يسدها غيره ، فالحاجة الى إقامة المشروعات الكبيرة ، ثغرة لا يسدها إلا خلق السخاء ، والحاجة إلى دفاع البغاة ثغرة لا تسدها إلا الشجاعة ورباطة الجأش ، والحاجة إلى حرية الدعوة إلى الحق ، لا يسدها إلا أقدام الدعاة ، وحلم أولياء الأمور وأناتهم ، ولطالما لهجت الألسنة والأقلام بتمجيد الأخلاق ، ونوهت بما لها من فضل فى التصعود بالأفراد والأمم إلى أوج السؤدد والكرامة . والذى يحتاج الى ألمعية مهذبة ، وبصيرة نافذة إنما هو استبانة الطريق التى تسلك لتربية نشأتنا على الأخلاق الماجدة تربية تجعلهم يقدرونها حق قدرها ، ويتنافسون فيها كما يتنافسون فى العلوم والفنون ، ولا يسعنى هذا المقام إلا أن أقول :

إن المعاهد والمدارس التى يدرس فيها علم الأخلاق، ويكون رؤساؤها وأساتذتها أنفسهم مثلا كاملة للأخلاق الراقية ، هى الكفيلة بأن تخرج لنا نشأ تباهى بسمو أخلاقهم ، قبل أن نباهى بغزارة علومهم ، ورجاحة عقولهم ، وطلاقة ألسنتهم ، قال عمرو بن عتبة لمعلم أولاده : ليكن أول إصلاحك لولدى إصلاحك لنفسك ، فالحسن عندهم ما صنعت ، والقبيح ما تركت .

وأما الاعتصام بحبل الائتلاف والاتحاد فان فى الناس من تقصر يده عن الوصول إلى حقوقه الشخصية ، ومآربه الحيوية ، إلا أن يعينه عليها قوم آخرون ، كما أن من مقتضيات الحياة الاجتماعية ما يتعذر القيام به إلا أن تتمالأ عليه الجماعات الكثيرة ، والتعاون الفردى أو الاجتماعى إنما يصدر عن إئتلاف وتعاطف يجعل الأمة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، فإن تفرقت القلوب ضاعت المصالح الفردية ، واختل أمر المصالح الوطنية ، وصارت البيوت بحال القبور ، وان كانت مفتحة الأبواب ، وسكانها بحال الجثث الهامدة : ولكنهم لا يستغنون عن الطعام والشراب .

وأما الثروة فتدخل فى أصول الإصلاح من ناحية أن كثيرا من المصالح الحيوية لا تقام إلا أن يبذل فى سبيلها مال غزير ، ثم إن كثيرا من الأخطار الداهمة لا يكفى فى دفعها إلا قوة يسعدها الأغنياء بأموالهم قبل أن يسعدها الحكماء بآرائهم ، و إذا استطاع الفرد أن يعيش فى قلة من المال وهو حافظ لكرامته ، فان الأمة لا تعيش حافظة لكرامتها إلا أن يكون فى خزائنها أو بيت مالها ما يسد حاجاتها ؛ و يكفل لها السلامة من كل قوة تحاول أن تسلبها حقا من حقوقها .

وشعر الناس فى القديم بمزية المال ومساعدته لذى الهمم الكبيرة على أن يدركوا من المجد ما لا يدركه المقلون منهم ؛ كما قال أحد أدبائهم .

أريد بسطة مال أستعين بها على أداء حقوق للعلا قبلى

وكذلك الأمم لا تدرك سيادتها كاملة إلا أن تضيف إلى ما لديها من بسطة العلم وسماحة الأخلاق بسطة فى الأرزاق . وقد جعل الله تعالى لبسطة الرزق أسبابا ؛ وجعل تعاطى هذه الأسباب صالحة معدودا فى الطاعات التى يجازى عليها بالحياة الطيبة فى الدنيا ؛ والنعيم الخالد فى الآخرة ؛ والزهد الذى يعد فى جملة الفضائل لا يراد منه إيثار الفقر على الغنى فى كل حال و إنما يراد منه طهارة القلب من التعلق بالملذات والزينات تعلقا يدفع إلى الوصول اليها ولو من طرق خبيثة ؛ والتوكل على الله الذى هو شعبه من شعب الإيمان المثمر إنما هو قوة اتجاه القلب إلى الخالق عند العزم على العمل ؛ حتى يسعده بالتوفيق ؛ ويمده بالتأييد وشاهد هذا قوله تعالى

"فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا أعزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين".

محمد الخضر حسين

ترامـــتم ، فقال الناس : قوم إلى الخـذلان أمرهم ترامى !
تباغيتم ، كأنكم خلايا من السرطان لا تجد الضماما

(شوقى)